المقالة الخامسة والثلاثون[1]
في ذكر الموت

سبيلنا أن نذعن للقائل فليعزِ بعضكم بعضاً وانفعوهم وأنا لست كافياً لهذه الوصية حتى أعمل هذا بحرصي لكنني أعرف القائل مبارك الإله أبو ربنا يسوع المسيح أبو الرأفات وإله كل تعزية الذي عزانا في كافة حزننا ليمكننا أن نعزي الذين هم في كل حزن بالعزاء الذي نتعزى به نحن من اللـه .

فلذلك احتسبنا نحن ضرورياً أن نكتب إليكم الفوائد التي تعلمناها من الكتب الإلهية ووعظنا بِها من أناس إلهيين وما اقتبسناه من التجارب لئلا نشابه نحن الصناع الحساد الذين يكتمون عن المتتلمذين لهم أكثر أسرار الصنعة حسداً وغيرة أما نحن فنصدق القائل أن اللـه هو الفاعل فينا إن شئنا نفعل أزيد من المسرة لأن الفضيلة لا تنقص إذا قومها قوم كثيرون ولا تضيق كما يقول واحد من القديسين إن أتقن الفضيلة كافة الناس وشاركوها لما أفنوا ثروتَها لأنْها ليست كالقنية الأرضية التي إذا وزعت أقساماً فبمقدار ما يزاد النصيب الواحد يقلل النصيب الآخر أو يكثر الواحد ينقص مساهمه فمن ذلك تنشأ الخصومة بين الناس . فأما المقتني الفضيلة فمهما أكثر من قنيتها لا يحسد .

والمختطف الجزء الأكبر منها لا يسبب خسارة ما لمن يؤثر أن يساهمه فيها ، فلنبدأ منذ الآن بالأمر المقصود بموازرة نعمة ربنا وإلهنا يسوع المسيح فنقول أن التواني يصير للذين لا يتيقظون سبب شرور كثيرة يحل قليلاً قليلاً السيرة الروحانية ويسرق حرارة الأمانة ويحض علي خدمة اللذات لأنه لا يسمح أن يحصل في العقل المكافأة التي تصير بعد الخروج من هذا العمر فلو سمع المتواني الكتب التي تخبر عن العذابات التي تكون بعد الوفاة وصدقها لجعل نفسه خارج هذا الزلل وما كان يحتملها بلا أشعار وبمقدار ما صار له من التواني يتيقظ لكل صلاح لأن المتيقظ حاضر عنده كل حين ذكر اللـه وحيث ما يتوطد ذكر اللـه يكف سائر فعل الخبيث .

فالشوق إلي الخيرات العتيدة الفاقد الشبع يجعل السعي دائماً وجيزاً ، إن السعي الجسداني يحتاج إلي صحة الأعضاء وحدة الإحضار فأما السعي الروحاني فيحتاج أن تكون النفس طاهرة ولو كان الجسم سقيماً منحلاً بزيادة المرض لما أضر النفس المتيقظة كما لم يضر أيوب الشهم تقاطر أمواج الأوجاع وجلوسه السماوي علي المزبلة ليس شئ أقوي من الديانة الحسنة .

وليس شئ مخسراً وكثير الشقاء أكثر من الحياة المؤلمة ، فبمقدار ما تكون الأمور الوقتية مستلذة تنمي المصيبة ، وكما أن محبي الفضة إذا خسروا درهماً أو درهمين يتوجعون لذلك مغلوبين من محبة المال ، والمقتني كرماً يسيراً وأرضاً يسيرة إذا عدم شيئاً من غلتهما يحزن غير محتمل المصاب.

هكذا يصيب بالأغنياء الحزن المذكور بمفارقة الغنى ولا سيما إذا رأى أحدهم ذاته مائلاً إلي الشيخوخة فينسكب حزناً مضغوطاً كأنه من ضغط الحديد والسجن الضيق إذ لا يجد حيلة واحدة يدفع بِها ورود الشيخوخة وإن ظن أنه يدفع ذكر الموت بالزمور والطبول وبباقي الآلة الموسيقية فبما يحتال من هذه يشعر أنه بلا محال سيعدم مثل ذلك السرور وتسكن التصفيقات والألعاب وصوت الأصوار (الأبواق) المستلذ والحزن يعصر قلبه ويأكل أحشاءه باطناً ولا يستقر ذلك أن طرب الغني الموسيقى بالخرافات وأخبار الحروب يتنعم دائماً بالموت والقتل فلو كان إذاً يذكر الموت لكانت خشية العقاب المنتظر تنقل بلا مراء حاله إلي عمل الصلاح لأنه قيل مَنْ مِنْ الكفار والمنافقين يذكر الموت

---

[1] كتاب: مقالات مار إفرآم ملفان الكنائس السورية ومعلم الأرثوذكسيين أجمع
وقف على طبعه أحد رهبان دير السيدة العذراء البراموس في برية الأنبا مقاريوس
طبع سنة ١٨٩٢

فلا يستغرب هذا لأن كل إنسان مقترن به ذكر الموت وأما الكفار فيستعملون هذا الذكر استعمالاً رديئاً منتحبين علي مقارفة الملاذ فقط . وأما المؤمنون فيستعملون ذكر الموت دواء وشربهُ يزيل الآلام النجسة وكلنا قد تيقنا إننا منصوبون للموت المؤمنون والكافرون ، فأما المحاكمة التي بعد الموت فلم نصدقها كلنا أما الصديقون فالدينونة نصب أعينهم دائماً كما يأمر القائل قد حكم علي الناس أن يموتوا مرة واحدة وبعد الوفاة الدينونة فلذلك يرسلون ليلاً ونَهاراً وسائل وطلبات إلي اللـه أن ينجوا من جهنم النار وباقي العذابات وأن يؤهلوا للتصرف مع الملائكة .

وأما المنافقون الخطاة فذكر الموت عندهم هو شئ ساذج مجرد لأنَهم لا يجتهدون خائفين من الأمور الصائرة بعد الموت بل ينتحبون علي فقدهم الملاذ ومفارقتها فإن صار لأحدهم الذكر الذي يصيب الصديقين فحينئذ ينصرف الحزن الأول ويضمحل ولا يعود موافقاً رأي القائلين نأكل ونشرب فإننا غداً نموت ولا يعتقد أن يكثر الأشياء التي لا نفع ويجمع بيديه ما لا ثمر له سوى العذاب بل يشتمله الاهتمام كما يليق بالإنسان الحكيم مهتماً باشتهاء الأشياء النفيسة هارباً من اهتمام المنافقين .

لأن الذين يحبون الثروة الأرضية فكافة عمرهم مشتغلون بالرجاء الباطل وبقدر التسامي في الغنى تنمى مخافة الرب كثيراً لأن مخافة الوفاة القاطنة باطناً تجلب الحزن على مقدار إحساس كل أحد لا لكي تتقوم لهم العفة والحلم والعدل والشجاعة ، لا من أجل جهنم وعدل حكم اللـه لكنهم يتحيرون في أنفسهم نائحين علي ثروتَهم .

قائلين ترى من يترأس بعد منصرفاً علي جسامة هذه النعمة ، ومن كان صديقاً للملوك يتمنى أن يعلم من يرأس المملكة بعده ، ومن يتملك جسامة هذا الذهب والفضة ومن يستخدم هذه الآلة الذهبية ومن يرث الحلل المذهبة القرمزية والسنادس الملونة الجزيلة قيمتها ، ومن يركب الخيل المنتخبة المذهبة لجمها لمن يتبع ويتقدم كثرة الغلمان المجتمعة من أمم مختلفة ، من يسكن في المجالس والقباب التي وشيتها أنا باهتمام بالرخام التي زخرفت أرضها بالفصوص المذهبة وسقفتها بالذهب لمن يخدم أصحاب الموائد ترى من يخدم الخدم ، من يضطجع علي الأسرة المفضضة ، ويستعمل الأطعمة التي أطيابَها من الهند ، من يستعمل الغلات والأشربة المروقة ، من يأخذ باكورة طرائف بساتيني ، من يقلب المناطق الذهبية ، من يصير خلفاً يتولى خزائن السلاح والمركبات والخيول المعدة للأسفار والحروب من يسمي أهل منزلي سيداً ، من يتطيب بأفخر الأطياب ، لمن تكون كلاب الصيد ، وإلى من تقدم باكورة غلاتي ، ومن يجبي الخراج .

وإذا أشتغل فكره في جهات كثيرة ولا يجد مناهجاً للأمر يلجأ إليه بتنهد كثيراً ثم يعود أيضاً إلي الاهتمام بمنزلة غير مرير أن يكنز لنفسه في السموات شيئاً ، وإذا نال نَهاية غاياته كلها من خصب الأثمار وتوفر الغلات وثمر البهائم وبَهاء المرتبة والشهامة في الحروب فحينئذ يخطر له ذكر الموت فيزعج قلبه ، فإن ضعفت أعضاؤه من تناهي الشيخوخة ولم يستطع أيضاً أن يخدم الملاذ الفاحشة والمحظورة فحينئذ يندب حياته .

وإن كان أحد جافياً فظاً متصلفاً ويجتهد أن يقصي بعد الموت الرفاهية ورغد العيشة فليس ذكر الموت خارجاً منه لأنه يضاهي المريض الذي يتظاهر بالصحة ويأكل الأغذية التي تضاد المرض ويظن أنه يزيل بِها الوجع لكنه لا يطرد بذلك المرض لأن المرض شائع في أعضائه ثم يذعن لا مختاراً بل بغضب لكونه مضبوط بالألم ومعايناً هيئته مخطوفة من الموت بغتة .

فحينئذ ييقن وإن لم يشاء أن قضية الموت بلا محالة ستوافى إليه ، وإن كان شاباً يشرف عليه أيضاً ذكر الموت فيخلط المحزنات بالملاذ لأنه إذا أبصر وجه قرينته المحبوب للوقت يدخله خوف الفراق ، أو سمع صوتَها اللذيذ يخطر بذهنه أنه لم يسمعه قط ، وإذا فرح بمعاينة الجمال فحينئذ يفرق مفكراً مميزاً أن هذا الجمال يزول وهذا الحسن الظاهر الآن يصير عظاماً نخرة قبيحة ولا يكون له أثر ولا ذكر ولن يوجد لهذا الجمال بقية . فإن أفتكر بِهذه ونظيرها أتراه يعيش بسرور هل نصدق الحاضرات عنده كأنَها صالحة وباقية دائماً أو تبان كأضغاث أحلام خادعة لا يمكن ولا يصدق أنَها

تخرج إلي العالم بل يتأمل الأشياء الظاهرة كأنَها أجنبية ، إن المتوانيين والمتهاونيين مظلمون تنقضي أيامهم في خديعة الخطية ظانيين أن ساعة الموت بعيدة منهم غير مهتمين بأنفسهم بل يحسبون لأنفسهم سنيناً كثيرة وأزمنة طويلة فهم يماثلون الذين يمشون في ظلمة الليل ويظنون أن الحفرة والهوة بعيدتان منهم إلي أن يتكردسوا فيها فتزول الحيرة والشك فالذي يتأمل بعين نفسه الصافية طغيان هذا العالم فيصير أعلى سموا من الأشياء التي ههنا متفطناً بلا مراءٍ إن أكل أو شرب أو رقد أو عمل أو تنزه في أن الطبيعة تنحدر إلي الشيخوخة وينتهي العمر الوقتي .

فلذلك يعرض عن الأشياء كلها كأنَها كناسة ويحرص أن يبعد ذاته من كل رثاء العالم وحزنه لئلا يكونان له مساهمة واحدة في الأشياء البشرية ، فالذي ينظر في السيرة الفاضلة ويكنز الفضيلة لنفسه التي لا توصف هل يخرج من هذه الحياة الحاضرة خلواً من التخشع والدموع ، أم يميل إلي الأمور الأرضية ، أتراه يتعجب من الغنى الوقتي أو من الاقتدار البشري أو من شئ آخر يحرص علية بغباوة .

فإن كان مائلاً للأمور العالمية فهو خارج عن هذا المجال وكلامنا ليس له ، أما من يعقل المعقولات العلوية والمتسامي سعيه إلي اللـه فهو أعلي سمواً ساعياً بكافة قوته وراء الفضيلة التي ليس في هذا العالم أكرم منها قدراً لأنَها تجعل الناس اخلاء اللـه ، وتحسب الذهب في عينها كالرمل والفضة قدامها كالطين لا يضنيها الشقاء ولا يكمد نورها المرض ، والموت المرهوب عند كثيرين يستهونه ذويها لأنَهم بدالة يهتفون مع القائل إن الشهوة تحضني أن أنكفي وأكون مع المسيح . الذي له المجد والاقتدار إلي الأبد. آمـين.